

الادب في سبر أعينهم

بيرون

ذلك العنبرى المتمرد الذى غنى أروع
أناشيد الحرية، ولاقى الموت فى سبيل الحرية

للأستاذ محمود الخفيف



نشأته وطفولته

ستمضى للسنون ويبقى بيرون فى الغرب كالنبتى فى الشرق
يحمل النفوس على الإعجاب به ، من أحبه ومن لم يحبه فى ذلك
سواء . وستظل عبقرية هذا الشاعر الشاب كالشملة تنقل من
جيل إلى جيل فلا تزداد على الأجيال إلا تألقاً وإعجاباً . وما كان
لشعر كذلك الذى جاشت به تلك النفس الثوبية الثائرة ، وغنت
به تلك القيثارة الملهمة الساحرة، أن تذهب الأيام بروعته وسحره،
مهما تغيرت فنون القول واختلفت ضروب البيان
وما عرفت أنجلترة ، بل وما عرفت أوروبا كلها شاعراً
كاللورد بيرون بلغ فى مثل سنه مبلغه من نباهة الاسم وبمد السيت
فى القارة جميعاً . وما عرف تاريخ الآداب رجلاً من عصره هذا
متوالياً عنيفاً كما من عصره ذلك الشاعر الذى تمرد على كل شيء
حتى على نفسه . وما لقي رجل من مواطنيه مثل ما لقي بيرون
من الإعجاب الشديد والسخط الشديد . ثم ما اختلف النقاد
فى رجل اختلافهم فى ذلك الذى كانت شخصيته الغدة مجموعة

عجيبة من التناقضات ، ذلك الذى بلغ قمة المجد الأدبى وهو
فى الرابعة والعشرين ثم غيب فى لحدته ولم يتجاوز السادسة والثلاثين
ولد جورج بيرون فى لندن عام ١٧٨٨ ، أى قبل أن تنبت
الثورة الكبرى فى فرنسا بعام واحد ، كأنما أراد القدر أن تستقبل
هذه النفس الثائرة الحياة فى عصر كانت تعصف فيه أنواء تلك
الثورة العاتية بأوروبا كلها . وكانت الأسرة التى انحدر منها ذلك
الشاعر من أعرق الأسر فى أنجلترة كلها ، فلقد جاء رأسها
مع وليم الفاتح عند الفتح النورمندى فى القرن الحادى عشر ؛
وكان بيرون يفخر أشد الفخر بانتباهه إلى تلك الأسرة حتى لقد قيل
إنه كان يزهى بحسبه هذا أكثر مما كان يزهى بأنه مؤلف
تسايلد هارولد ومنفرد

على أن الشاعر قد ورث من بعض أفراد أسرته هذه بعض
ما لا يحمد من الصفات ؛ فكان سبي الحظ من هذه الوجهة
بانتباهه إلى هؤلاء . وحسبنا أن نشير منهم إلى اللورد الخامس
فى هذه الأسرة ، ذلك الذى كان ينتمى باللورد النص ، فقد كان
شاذاً إلى حد يقرب به من الجنون، فهو يبعثر أمواله وهو يحتجج
عن الناس ، وهو لا يهدأ ذات ليلة حتى يقتل قريباً له فى مبارزة
دعاه إليها على ضوء شمعة فى غرفة مغلقة على أثر خلاف نشأ بينهما
وهو يأتى من ضروب اللب واللبث ما لا يفترق به عن الصبية أ
وكان لهذا اللورد النص أخ يعمل فى البحرية وقد وصل بجده
إلى مرتبة الأدميرال ولكنه كان يعرف بين زملائه ومرؤوسيه
باسم « الجوا العاصف » لأنه ما ركب البحر إلا هبت فى إرته
عاصفة ، وأوجب هذا الأدميرال ولدين كان كبيرهما تسمى الحيا
وجيه الطلعة حسن السمى ، وقد انتظم فى سلك الجندي وهو
فى سن اليقاعة وغاض غمار الحرب الأمريكية فيمن خاضوا ،
ثم عاد إلى أنجلترة وهو فى العشرين من عمره ، فكانت وجاهته
محصر الأحداق فيه ، إلا أنه عرف بمحبة عواطفه وعدم مبالاة
وجرأته أكثر مما عرف بجأله، حتى لقد حمل هو أيضاً بدوره لقباً،
ذلك هو جاك المجنون

وقتن جمال جاك إحدى الحسان وكانت زوج أحد اللوردات
حتى هامت به . ولم تتردد حينما مات أبوها وخلف لها أربعة آلاف
من الجنيهات كل عام أن تهرب منه إلى فرنسا ، حيث حملت منه
ثم وضمت بنتاً ، ولكن هذه المرأة المسكينة ما لبثت أن قضت
نحبها إثر مرض كما يقول بعض الناس أو من جراء سوء معاملة
زوجها إياها كما يقول آخرون

على أن چاك ما لبت أن أوقع في حباله سيدة اسكتلندية إلا تكن جميلة كما بقيا فقد كانت ترث عن أبيها ثروة قدرها ثلاثة وعشرون ألفاً من الجنيهات ، وقد شغفها حباً ذلك الشاب الغريب الأطوار ثم بنى بها فأنجبت له بعد أربعة أعوام طفلاً هو الشاعر الذي تحدثت عنه

كانت هذه السيدة الاسكتلندية تدعى كاثرين جوردون ، وكانت ترمي هي أيضا أشد الرهبان بالأسرة التي تنتمي إليها ، فقد كانت تجرى في عروق أفرادها دماء من أسرة استيوارت الملكية ؛ ولكن هذه الأسرة لم تكن في تاريخها أسعد حظاً من أسرة يرون ، فقد قتل بعض أفرادها ، وأعدم البعض ، وانتحر آخرون في عدة حوادث ، وكان آخر هؤلاء والد كاثرين الذي انتحر غرقاً وخلف تلك للثروة لابنته . وطالما كان رجال هذه الأسرة مصدر رعب للاسكتلنديين ، إذ كانوا يلاقون على أيديهم كثيراً من البطش والانتقام ...

عاشت كاثرين مع زوجها أول الأمر في اسكتلندة وما لبت أن هالها منه إسراره وعبثه بثروتها ، وقد كان لا ينقطع عن المقامرة ، ولا بكاد يفيق من سكره . ثم رحلت معه إلى فرنسا حين ضاقت باحتقار الناس إليها وزوجها المشتهر الماخن ؛ وراح زوجها ييمتد الأموال في باريس بغير حساب ، وهو لا يسد ديناً إلا وقع في دين . وانتقل الزوجان إلى لندن بعد ذلك ، ولكن جاك ترك زوجته هناك وعاد إلى باريس ، وصار لا يزورها إلا حين يطلب المال . على أنها ظلت على الرغم من ذلك مفتونة به ، وقد ازدادت به تعلقاً حينما وضعت ذلك للفلام الجليل الذي سمته جورج جوردون في سنه ١٧٨٨

وبدد زوجها ثروتها ، حتى لم يبق لها منها إلا ثلاثة آلاف من الجنيهات كان دخلها منها مائة وخمسين كل عام ، واضطرت المرأة المسكينة أن تعيش بهذا القدر من المال ، وصمها طفلها وخادمتان له ، وأخذت نفسها بالاعتقاد الشديد . ورحلت السيدة إلى أبردين ، وجاء زوجها فاختار له سكناً بقربها ، وصاروا يتراوران من حين إلى حين ، ولكنهما بقيا منفصلين . وطلب الرجل يومئذ ثلاثمائة من الجنيهات فاستدانتها وصارت تدفع رباها من دخلها حتى أصبح ما تعيش به مائة وخمسة وثلاثين ، ولكنها ظلت حتى بعد ذلك تحب هذا الرجل حباً شديداً ، ولم ينقص من ذلك الحب أنه عاد ثانية إلى فرنسا وتركها وابنها في أبردين ، على أنها لم تره

بعد ذلك ، فقد لقي حنقه منتحراً كما أشيع ، وابنه في الثالثة من عمره وعاش الطفل مع أمه وخادمتيه ، وكان شذوذ هذه الأم في كثير من سلوكها لا يقل عن شذوذ أبيه ؛ كانت تحنو عليه أحياناً أشد الحنو ، وتفسو عليه أحياناً أشد القسوة ، حتى لتضربه ضرباً شديداً . ولقد قذفته ذات يوم بملقط النار وهو محمي فكادت تقتله ؛ وكثيراً ما رآها في ساعات غضبها تقذف الخادمة بالأطباق فإن لم تجد أمامها أحداً مزقت ثيابها ولطمت وجهها وحطمت قبعها كأن بها جنة . وينظر الطفل إلى أمه فيمتلج في نفسه الصغيرة الألم والرثاء والإشفاق ، وقبل ذلك رأى أباه ورأى مواقف من أمه ومواقف أمه منه ، فكان يتساءل عما يرى مندهشاً لا يقتنع بما يجيبه به خادمته

وكان الطفل جيلاً كأيها ، ولكنه ولد وفي إحدى قدميه عاهة فكان لا يستطيع أن يمشي بها الأرض إلا على أطراف أصابعها ، ولذلك كان في مشيته عرج ظاهر وكان يتألم من ذلك أشد الألم ، وما كان أشد ألمه حينما كانت أمه تميزه بهذا إذ ترميه بالسيل الذي لا ينقطع من شتاتها ، ولكنه كان يكظم غيظه وإن نفسه لتتطوى على ثورة صامته ، ولم يمالك نفسه ذات يوم ، حينما دعت بالأعرج ، أن يجيبها قائلاً : « هكذا ولدت يا أماء ! » وفي هذا الرد نلسن نعمة للشاعر المستقبل حينما يجرى الحوار على السنة أشخاص قصصه . ولقد أتى بموقف شبيه بهذا في إحدى رواياته فلقد استقرت مواقف الطفولة في نفسه وما برحت بعد ذلك تظهر في آثاره . وما كان الطفل يصبر على أحد غير أمه بشير إلى عرجه ؛ لقيته ذات مرة في الطريق لإحدى السيدات وهو لم يتجاوز الثالثة فقالت لخادمتها : « ما أجل هذا الطفل لولا أن له وأساءه مثل هذه الساق » . فبتت على وجهه أمارات الغضب وصاح بها قائلاً : « كنى عن هذا » ، ثم ضربها بكرياج لمبته محتجاً محتقاً

ويطول بنا الكلام لو رحنا نسرده ما كان يلاقيه الطفل على يد أمه من عذاب ؛ وحسبك أنهم انزعجوا منه ذات يوم سكيناً أو شك أن يجربها على عنقه يريد أن يقتل نفسه وقد ضاق بما كان من أمه . على أنه ما كان يفكر في الانتحار وحده فكانت تحده نفسه أن أمه تنتوى ذلك . ومما يذكر عنهما أن كليهما ذهب على غير علم من الآخر إلى بائع المقايير وطلب إليه ألا يبيع الآخر شيئاً إذا هو رغب في شرائه

اللطيف

(ينسى)